

مسائل الحجّ وسبب كثرتها

نقد وإجابة

آية الله الشيخ جعفر السبحاني

قرأنا في أحد المواقع إشكالاً حول الحديث المتعلق بالحجّ، وهو ما رواه بكير ابن أعين عن أخيه زرارة، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلني الله فداك! أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتيني؟ فقال: «يا زرارة بيت يُحج قبل آدم عليه السلام بألفي عام تريد أن تفتني مسائله في أربعين عاماً». ^١ والرواية كالصحيح حسب مصطلح أصحابنا

١. من لا يحضره الفقيه ٢ : ٥١٩.

في تقسيم الروايات.

ومحاور الإشكال كالتالي:

أولاً: كيف يقول زرارة: أسألك في الحج منذ أربعين عاماً، مع أن إمامة أبي عبد الله عليه السلام لم تتجاوز ٣٤ عاماً، لأنه تولّى الإمامة بعد وفاة أبيه الإمام الباقر عليه السلام في عام ١١٤ هـ، وتوفي عام ١٤٨ هـ؟

ثانياً: أن الإمام يجب بأن البيت يحجّ قبل آدم بألفي عام، وهذا لا يكون جواباً على سؤال السائل، أعني ماهو السبب لكثرة الأسئلة في الحج؟

والجواب عن الأمر الأول بوجهين:

أما أولاً: فإنّ التعبير بأربعين عاماً ربّما يكون كناية عن كثرة الأعوام وإن لم تكن بالدقّة أربعين عاماً، وهذا أمر رائع، فإنّ الإنسان إذا عاش مع آخر أعواماً كثيرة ربّما يعبر عن مدة حياته معه بأربعين عاماً وإن كان بالدقّة أقل، ولا يوصف بالكذب.

وثانياً: فإنّ الإمام الصادق عليه السلام وإن كان تولّى أمر الإمامة بعد وفاة أبيه، ولكنه كان مورد اهتمام لأبيه فربما كان يرجع الناس إليه ليسألوه. ويشهد على ذلك أن عبد الملك بن مروان بعث إلى عامله في المدينة أن وجّهه إليّ محمد بن علي بن الحسين ولا تهبّجه ولا تروعه، واقض له حوائجه، وقد كان ورد على عبد الملك رجل من القدرية^١ فحضر جميع من كان بالشام فأعياهم جميعاً، فقال: ما لهذا إلاّ محمد بن

١. القدرية في الأخبار يطلق على الجبري والتفويضي، والمراد في هذا الخبر هو الثاني وقد أحال كلّ من الفريقين ماورد في ذلك على الآخر وقد ورد في ذمهم أحاديث كثيرة في كتب الفريقين مثل قوله صلى الله عليه وآله: «لعن الله القدرية على لسان سبعين نبياً». وقوله صلى الله عليه وآله: «القدرية مجوس أمّتي».

علي، فكتب إلى صاحب المدينة أن يحمل محمد بن علي إليه، فأتاه صاحب المدينة بكتابه فقال له أبو جعفر عليه السلام: «إني شيخ كبير، لا أقوى على الخروج وهذا جعفر ابني يقوم مقامه، فوجهه إليه فلما قدم على الأموي ازدراه لصغره وكبره أن يجمع بينه وبين القدري مخافة أن يغلبه، وتسامع الناس بالشام بقدوم جعفر لمخاصمة القدرية، فلما كان من الغد اجتمع الناس بخصوصيتها؛ فقال الأموي لأبي عبد الله عليه السلام: إنه قد أعيانا أمر هذا القدري وإنما كتبت إليك لأجمع بينك وبينه فإنه لم يدع عندنا أحداً إلا خصمه. فقال عليه السلام: «إن الله يكفيننا». قال: فلما اجتمعوا قال القدري لأبي عبد الله عليه السلام: سل عما شئت، فقال له: اقرأ سورة الحمد. قال: فقرئها وقال الأموي - وأتامعه -: ما في سورة الحمد علينا؟ ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾! قال: فجعل القدري يقرأ سورة الحمد حتى بلغ قول الله تبارك وتعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، فقال له جعفر عليه السلام: «قف من تستعين؟ وما حاجتك إلى المعونة؟ إن الأمر إليك، فهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الكافرين».^٢

فالحديث يكشف أن الإمام جعفر الصادق عليه السلام كان مرجعاً للأسئلة في حياة أبيه، ومن الممكن أن زرارة سأله بعض ما يرجع إلى الحج من الأسئلة أيام حياة أبيه.

وأما الجواب عن السؤال الثاني فكلام الإمام يتضمن أمرين:

أما الأول: فقوله: «بيت يحج قبل آدم بألفي عام»، فليس الإمام منفرداً في

١. استخف به.

٢. تفسير العياشي ١ : ٢٣-٢٤؛ بحار الأنوار ٥ : ٥٥.

نقله، فقد أخرجه الشافعي في مسنده،^١ عن ابن أبي ليبد عن محمد بن كعب القرظي أو غيره، قال: «حجَّ آدم عليه السلام فلقيته الملائكة، فقالوا: برئُتسكك آدم لقد حججنا قبلك بألفي عام».^٢

وأخرجه البيهقي أيضاً في سننه،^٣ وفي «شعب الإيمان» عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «كان موضع البيت في زمن آدم عليه السلام شبراً أو أكثر علماً فكانت الملائكة تحجُّ إليه قبل آدم، ثم حجَّ آدم فاستقبلته الملائكة، فقالوا: يا آدم من أين جئت؟ قال: حججت البيت، فقالوا قد حججته الملائكة من قبلك».^٤

وأما الثاني: أي كيف أجاب الإمام عن سبب كثرة الأسئلة حول الحج بقوله: «بيت يحجُّ قبل آدم بألفي عام»، فتظهر حاله بالتدبر فيما ورد من غير من واحدة من الروايات وهو أن الله تعالى أدخل بعض سنن أنبيائه في مناسك الحج عبر قرون وفرضها على العباد وهذا صار سبباً لوجود الأسئلة الكثيرة في أمر الحج، فلذلك جعل الإمام أبو جعفر عليه السلام سبب كثرة الأسئلة كون البيت يحجُّ بألفي عام حيث تواردت الأحكام من قبل سائر الشرائع على الحج عبر قرون فصار ذلك سبباً لوجود كثرة الأسئلة فيه، ويدل على ذلك ما يلي:

١- ما أخرجه أبو داود وغيره عن يزيد بن شيبان، قال: أتانا ابن مربع الأنصاري ونحن بعرفة في مكان يباعده عمرو عن الإمام فقال: إما إني رسول رسول الله صلى الله عليه وآله إليكم، يقول لكم: «قفوا على مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث

١. مسند الشافعي، ترتيب سنجر، ٢ : ١٧٠.

٢. سنن البيهقي ٥ : ٢٨٨.

٣. المصدر نفسه.

٤. شعب الإيمان، للبيهقي ٥ : ٤٤٩؛ وفي سننه الكبرى ٥ : ٢٨٨.

أبيكم إبراهيم». رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وصححه الألباني.^١

٢- ما رواه البخاري، في وجه سعي الناس بين الصفا والمروة وقال راوياً عن ابن عباس في قصته وضع إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر وابنه إسماعيل عند البيت، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال: يتلَبَّطُ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم اتت المروه فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، ففعلت ذلك سبع مرّات.

قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وآله: «فذلك سعي الناس بينهما». رواه البخاري.^٢
إن للإمام الصادق عليه السلام مقاماً رفيعاً بين الفقهاء منذ شبابه في بيان مسائل الحجّ، وقد روى مسلم في صحيحه حديثاً مفصلاً عن الإمام عليه السلام يصف فيه أكثر مناسك الحجّ، وكان هذا الحديث هو العمدة عند الفقهاء في بيان مناسك الحجّ، قال الزبيلي في «نصيب الراية» هذا مانصّه:

ولنذكره برمّته فإنّ عمدة في مناسك الحجّ أخرجه مسلم عن جعفر بن محمد

١. سنن أبي داود، باب موضع الوقوف بعرفة ٢ : ١٨٩ وبهامشه تحقيق الألباني وحكمه بالصحة؛
والترمذي، باب ما جاء في الوقوف بعرفات ٣ : ٢٢١؛ وسنن النسائي ٥ : ٢٥٥؛ وسنن ابن ماجه
٤ : ٢١٥؛ واللفظ لأبي داود أمّا لفظ الترمذي وغيره فكما يلي: «كونوا على مشاعركم فإتكم
على إرث من إرث إبراهيم».

٢. صحيح البخاري ٤ : ١٤٢، الحديث ٣٣٦٤.

عن أبيه،... ثم ذكر الحديث إلى آخره.^١

ويدلّ غير واحد من الروايات والأخبار على دور الإمام الصادق عليه السلام في تعليم مناسك الحجّ وأحكامه وآدابه، وأنّ المسلمين بجميع طوائفهم كانوا يصدرون عن فتاواه وآرائه، نذكر هنا ما يلي:

١. روى الصدوق رحمته الله عن أبي حنيفة، أنه قال: لولا جعفر بن محمد ما علم الناس مناسك حجّهم.^٢

٢. روى الشيخ الطوسي رحمته الله في «التهذيب» عن عبد الصمد بن بشير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: جاء رجل يلبي حتى دخل المسجد وهو يلبي وعليه قميص، فوثب إليه أناس من أصحاب أبي حنيفة فقالوا: شقّ قميصك وأخرجه من رجلك، فإنّ عليك بدنة وعليك الحجّ من قابل وحجّك فاسد، فطلع أبو عبدالله عليه السلام فقال على باب المسجد فكبرّ واستقبل الكعبة، فدنا الرجل من أبي عبدالله عليه السلام وهو ينتف شعره ويضرب وجهه، فقال أبو عبدالله: «اسكن يا عبدالله»، فلمّا كَلَّمه وكان الرجل أعجمياً، فقال أبو عبدالله عليه السلام: «ما تقول؟»، قال: كنت رجلاً أعمل بيدي، فاجتمع لي نفقة فجئت أحجّ لم أسأل أحداً عن شيء، فأفتوني هؤلاء أن أشقّ قميصي وأنزعه من قبل رجلي وأنّ حجّي فاسد وإنّ عليّ بدنة، فقال له: «متى لبست قميصك أبعد ما لبيت أم قبل؟» قال: قبل أن ألبّي. قال: «فأخرجه من رأسك، فإنه ليس عليك بدنة، وليس عليك الحجّ من قابل، أيّ رجل ركب أمراً بجهالة فلا شيء عليه، طف بالبيت سبعة، وصلّ ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام، واسع بين الصفا والمروة، وقصّر

١. صحيح مسلم ٤ : ٣٩-٤٣، باب حجّة النبي صلّى الله عليه وآله سنن أبي داود ٢ : ... برقم ١٩٠٥؛ شرح

صحيح مسلم للنووي : ٧ - ٨، باب حجّة النبي صلّى الله عليه وآله برقم ٢٩٤١.

٢. الفقيه ٢ : ٥١٩ كتاب الحجّ، باب نوادر الحجّ، برقم ٣١١٣.

من شعرك، فإذا كان يوم التروية فاغتسل وأهل بالحجّ، واصنع كما يصنع الناس»^١.
 ٣. روى الشيخ رحمه الله في «التهذيب» عن معاوية بن عمّار قال: إن امرأة هلكت فأوصت بثلاثها يتصدّق به عنها ويحجّ عنها ويعتق عنها فلم يسع المال ذلك، فسألت أباحنيفة وسفيان الثوري، فقال كل واحد منهما: انظر إلى رجل قد حجّ فقطع به فيقوّى، ورجل قد سعى في فكاك رقبتة فيبقى عليه شيء فيعتق، ويتصدّق بالبقية، فأعجبني هذا القول وقلت للقوم - يعني أهل المرأة - : إني قد سألت لكم فتريدون أن أسأل لكم من هو أوثق من هؤلاء؟ قالوا: نعم، فسألت أبا عبد الله عليه السلام عن ذلك فقال: «أبدأ بالحجّ فإنّ الحجّ فريضة، فما بقي فضعه في النوافل»، قال: فأتيت أباحنيفة فقلت: إني قد سألت فلاناً فقال لي كذا وكذا، قال: فقال: هذا والله الحقّ، وأخذ به وألقى هذه المسألة على أصحابه، وقعدت لحاجة لي بعد انصرافه فسمعتهم يتطارحونها، فقال بعضهم بقول حنيفة الأول، فخطأه من كان سمع هذا وقال: سمعت هذا من أبي حنيفة منذ عشرين سنة^٢.



١. تهذيب الأحكام ٥ : ٧٢ - ٧٣، باب إذا لبس الإنسان قميصاً...

٢. المصدر نفسه ٥ : ٤٠٧، الحديث ٦٣.